هجرة الجزائريين إلى بلاد المشرق في العهد العثماني(1518-1830)

الدكتور بوسلامة محمد، جامعة ابن خلدون تيارت

الملخص:

تحكمت مجموعة من الدوافع والعوامل في هجرة الجزائريين نحو المشرق العربي الإسلامي ، فمنها العامل الديني ، والعامل العلمي والمعرفي ، العامل السياسي وكذا العامل المادي والتجاري ،فاجتماع هذه العوامل جعلت مئات بل الآلاف منهم يشدون الرحال إلى هذه المنطقة بحثا عن الأمن والأمان والاستقرار والاسترزاق ، ، وتعد الأماكن الإسلامية المقدسة من اكبر الأماكن المحببة لدى سكان منطقة المغرب العربي عامة والجزائريين خاصة ، رغم الصعوبات والمشقة التي يجدونها في الطريق ، إلا أنهم وبمجرد وصولهم تهون تلك الصعاب .

الكلمات مفتاحيه: المشرق العربي ، الدولة العثمانية ، الجزائر ، الهجرة ، بلاد الشام ، الأماكن المقدسة ، المغرب العربي ، المشرق الإسلامي.

Migration of Algerians to the Orient in the Ottoman Period (1518 - 1830)

Abstract: A set of motives and factors dominated the emigration of Algerians towards the Islamic Orient. Among them were the religious factor, scientific and cognitive factor, political factor, as well as the Material and commercial factor. These factors all together have made hundreds, even thousands of them, travel to this region exclusively for security, safety, stability and estrangement. The holy places of Islam are among the most popular places for the inhabitants of the Maghreb region, in general and the Algerians, in particular; in spite of the difficulties and hardships they find on their way there. However, once they arrive, those difficulties are tempered.

Key words: The Arab Orient- Ottoman Empire- Algeria- Migration - the Orient – Motives -the Holy places -Orient Islamic

الهجرة ظاهرة اجتماعية إنسانية شملت كل بقاع الأرض. فمنذ القدم كانت هناك تنقلات وحركات هجرة من منطقة إلى أخرى ، ومن قارة إلى أخرى لعدة أسباب اقتصادية وسياسية ، أو لظروف طبيعية من جفاف ومجاعات [1] كل هذه العوامل تحكّمت في هذه الظاهرة الإنسانية منذ القدم. ومع استقرار الإنسان ، جاءت ظروف أخرى سياسية بالدرجة الأولى ، من اضطهاد سياسي وديني وعرقي ، لتدفع بالمئات بل حتى بالآلاف من الناس إلى الانتقال خارج حدود بلادهم بحثا عن مواطن أكثر أمنًا واستقرارًا [2].

الواقع أن موقع الجزائر الجغرافي جعلها ، منذ القديم ، منطقة مفتوحة على حركات هجرة بشرية. حيث خرجت منها موجات بشرية لأغراض معيشية عديدة ، قد يكون على رأسها طلب العلم والتّفقه في الدّين والبحث عن مصادر الاسترزاق أو فرارًا من الأوضاع السياسية وكذا مظاهر التوتر وعدم الاستقرار الأمني الّذي شهدته الجزائر في القرن الخامس عشر الميلادي [3].

فكانت ظاهرة الهجرة صوب البلاد العربية والإسلامية شرقًا وغربًا خاصة في اتّجاه بلاد الشام والحجاز ومصر هائلة . وقد حاولت في هذا

الموضوع الإجابة على الإشكالية التالية : ماهي الظروف والدوافع التي كانت وراء هذه الهجرة ؟ وأي المناطق من المشرق استقطبت هذه الجالية؟ وكيف كانت ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية ؟.

أولا : ظروف الجزائر في بداية القرن السادس عشر ميلادي:

كان لسقوط غرناطة -آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس- على يد الإسبان في (898 هـ-1492 م) أثر كبير على الغرب الإسلامي ، حيث أحدث هذا السقوط زلزالا عنيفا في هذه المنطقة. فخريطة المنطقة السياسية ، لم تعد كما كانت عليه خلال الفترة السابقة عن أواخر القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر ، وذلك بعد سقوط دول المغرب الإسلامية الثلاث: الحفصية والزيانية والمرينية وإماراته الصغيرة المتهالكة ، والتي كانت قد ظهرت بعد انهيار الدولة الموحديّة سنة 1261م ، وسقطت إمارة الثعالبة حول مدينة الجزائر بعد أن وقف ضدّها الزيّانيون من البر والإسبان من البحر ، وفقدت إمارة كوكو[4] وإمارة المقرانيين[5] استقلالها ، و بذلك رسمت خريطة جديدة للمغرب الإسلامي وهي الخريطة التي استمرت إلى يومنا هذا مع بعض التعديلات الطفيفة. وهذا الضعف وتردي أوضاع المنطقة ، جعلا الكاردينال كسيماناس- المشهور بتعصّبه الديني ضد المسلمين- يحرّك مخاوف الملكة إليزابيث من مسلمي الشمال الإفريقي ، فأمرت هذه الأخيرة بتجهيز حملة إلا أنها توفيت قبل أن تنفّذ رغبتها [6]. فصمّم الملك فرديناند على مواصلة مشوار الملكة ، فوصلت البواخر إلى مرسى الكبير وحاصرته مدة 51 يوم حتى سقط ثم هاجموا وهران حتى سقطت. وبدءوا يفكّرون في المدن الساحلية الأخرى ، حيث اعتبرها الإسبان مفتاحًا فقط للنفاذ إلى داخل البلاد [7]. إلا أن المقاومة الشعبية التلقائية كانت في حاجة إلى قيادة ، ولذلك طلب أبناء بجاية المساعدة من الأخوين عروج [8] وخير الدّين [9] ، الّذين لمعا اسماهما في غزوات إنقاذ مسلمي الأندلس من البطش الصليبي. كما تقدّم أبناء مدينة الجزائر بنفس الطّلب. هذا الاستنجاد فتح أمام الأخوين عروج وخير الدين ، باب الأمل في الاستيلاء على الجزائر بعدما كان تفكيرهما منصبًا على احتلال مصر [10].

أستنجد سكان مدينة الجزائر بواسطة رئيسهم سالم التو مي بعروج لمساعدتهم في تحرير القلعة التي احتلها الإسبان ، فأسرع عروج إلى الجزائر ، واحتل في طريقه شرشال. واستقبل من أهل الجزائر استقبال المحرّرين. لكنّه فشل في المهمة التي جاء من أجلها وهي تحرير القلعة ورأى أهل المدينة أنه لم يظل المبرر الّذي يبقيه بينهم خاصة تصرّفات جنده الّذين بدأوا يتصرّفون و كأنّهم في بلد محتل [11]. وبدأت المؤامرات تحاك لطرده ، وأشترك فيها سالم التومي و أهل المدينة والإسبان.

ولكن عروج كشف المؤامرة و سبق المتآمرين ، فقتل زعيمهم التومي ونادى الجند به سلطانًا. ونجح في الاحتفاظ بالجزائر ، واستعمل أقصى وسائل الشدّة ضدّ خصومه ، وجاء بأخيه وولاّه منطقة الشرق وأخذ له مقر وهو دلس في حين ترك لنفسه مدينة الجزائر ومناطق الغرب [12]. ومن أجل تعزيز سلطانه ، توجّه عروج إلى تلمسان وأخضعها لحكمه ، إلا أن سكان تلمسان ثاروا ضدّه وأجبروه على الخروج منها.

وعندما علم الإسبان بهروبه من تلمسان ، أرسلوا قوة لمطاردته. و بعد معركة ضارية ، قتل عروج مع جميع أنصاره عام 1518م [13].

كان خير الدين نائبًا لأخيه في مدينة الجزائر ، ولما وصله نبأ مقتل أخيه ، نادى به الجند خلفًا له في وضع كان في غاية الصعوبة ، الإسبان من جهة والثورات الداخلية والمؤامرات من جهة ثانية. فأدرك خير الدين ببعد نظر أنه لا يستطيع أن يجابه الموقف بقواه الخاصة ، وأدرك أيضًا أن عليه أن يعتمد على قوة الدولة العثمانية ليحصل على الهيبة ، المال والقوة التي تسمح له بالسيطرة على المغرب الأوسط [10].

ومن أجل تحقيق هذه الغاية ، تقرّب من سكان مدينة الجزائر وعلمائها ، وشرح لهم الوضع القائم ، إذ أنه أصبح وحيدًا غير قادر على مجابهة الأعداء من الدّاخل أو الخارج كالإسبان ودولة الزيّانيين ودولة الحفصيّين. وأقنعهم بطلب العون من الدولة الإسلامية الناشئة ، فهي السّبيل الوحيد إلى إزالة هذه الأخطار والعيــش في الاستقرار والأمان [11].

لقد استجاب السلطان العثماني سليم الأول لمطلبه ، وأعطاه لقب "باشا" وسمّاه "باي لارباي" إفريقيا أي أمير الأمراء ، وأرسل له نحو ستة آلاف جندي ، و زوّده بالمدفعية ،إذ استطاع بها خير الدين أن يصدّ هجومًا إسبانيًا سنة (926هـ-1519م) فكان الانتصار حليفه. لكن ذلك لم يحل دون نشوب ثورات جديدة ضدّه أبعدته عن مدينة الجزائر خمس سنوات من (1520م إلى 1525م)، وعند عودته حاصر قلعة الفنار وطرد الإسبان منها في (935هـ-1529م). وكان لسقوط برج الفنار دويٌّ كبير جعل أمير تلمسان يبعث له بالولاء [12]. هكذا وطّد خير الدين حكمه في الجزائر ، ودخلت هذه الأخيرة تحت النفوذ العثماني من (1518م إلى 1830م)، فترة شهدت صراعات وثورات وعدم استقرار أمني في فترات ؛ إلا أن هناك إيجابيات يجب علينا ذكرها من أجل الموضوعية ، ألا وهي ، أن الجزائر كانت في أوائل القرن السادس

عشر ، تعاني من التمزّق الدّاخلي ومن الخطر الإسباني الخارجي. وقد وضع خير الدين أسس الدولة الجزائرية الحديثة التي تقوم على القضاء على الفوضى الداخلية وتوحيد القوى الجزائرية [13]. وبسبب الأوضاع السائدة السالفة الذكر ، نشطت حركة الهجرة في اتّجاه المشرق الإسلامي. فكيف كانت هذه الهجرة ؟ وما هي أسبابها ؟

ثانيا: الدوافع والأسباب:

هناك عدة عوامل دفعت بالجزائريين إلى الهجرة لبلاد المشرق خلال الحكم العثماني من (1518 إلى 1830م) و نوجز هذه العوامل فيما يلي:

أ- العامل الديني:

منذ الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب ، غدا المشرق العربي الإسلامي قبلة أنظار سكان المغرب ، ومهوى أفئدتهم. لوجود الأماكن الإسلامية المقدّسة فيه الكعبة المكرّمة والمزارات الكبرى ، وكذا قبر النبي صلّى الله عليه وسلّم ، وكل المواقع التي عاشتها الرسالة الإسلامية. وكان إلتماس جوار الرّسول الكريم من كبرى أمنيات الجزائريين ، ولو كانت تلك (المجاورة) لفترة محدودة من الزمن ، وهذا رغم وقوع بلادهم بعيدة عن هذه المناطق ؛ فإنهم كانوا يتجشمون كل وعر في البر والبحر بغية قصد زيارة هذه المناطق والأماكن. وعلى الرغم من عناء السفر ومشاقه وصعوبات الطريق البحرية التي غدت في العصر الحديث مفزعة ومرهقة بسبب انتشار القرصنة الأوربية في البحر المتوسط [14]. وتعرّضها للسفن الإسلامية وللحجيج ، وأخذها المرتحلين أسرى.

ومع أن بلاد الحجاز هي الهدف المنشود في المشرق العربي الإسلامي ، إلا أن طريقهم إليها لا بد أن يعرج على مصر من المشرق المتوسطي ذهابًا وإيابًا. فهي محطة حتمية يستريحون فيها ، ويجوبون أرجاءها و يتعرّفون على فضائلها ، ويتبركون بمزاراتها ، بعد أن أضحت مركزًا علميًّا سنيًا. وحلت القاهرة محل بغداد عاصمة للعالم الإسلامي ، ولم يتغيّر على الوافدين الجزائريين من الأمر شيء في العصر الحديث ، سوى أنها وقعت في أيدي العثمانيين الّذين أعادوا للإسلام كثيرًا من الهيبة وسعوا لتوحيد المغرب مع المشرق ثانية في ظل دولة إسلامية سنية واحدة [15].

لم تكن بلاد الحجاز ومصر فحسب مطمع انتقال الجزائريين إلى المشرق بل أن بلاد الشام كانت هي الأخرى غاية من غاياتهم يشدون إليها الرحال على الرغم من بعدها عن الطريق التقليدية لحجهم. بل أن هناك العديد منهم آثرها على وطنه وأقام بها وتزوّج منها وتعلّم وعلّم فيها. فبلاد الشام حرمة دينية في نفوس المسلمين عامة ، فهي ديار مقدّسة ، تنقل الرسول الكريم في ربوعها في حادثي الإسراء والمعراج [16] ، وفيها المسجد الأقصى. وقد أوردت في فضائلها أحاديث كثيرة ، حثّ فيها الرّسول المؤمنين على الإقامة فيها. وقد لازمت تلك

الحرمة الدينية التقديسية لبلاد الشام نفوس المغاربة ومنهم الجزائريين المؤمنين حتى العصر الحديث. وكانت من الجواذب التي استقطبتهم للحج إليها هي أنها مقر "الأنبياء والأولياء" [17].

أ- **العامل الجغرافي:**

إذا كانت العوامل الدينية من الثوابت التي دفعت وتدفع المغاربة ومنهم الجزائريين المسلمين إلى المشرق العربي لإقامة طويلة أو قصيرة فيه ، فإن العوامل الجغرافية الطبيعية ثوابت أخرى تشجّع على ذلك الانتقال. فالتّشابه في الطّبيعة والمناخ بين الطّرفين ، تجعل الجزائري لا يشعر بالوحدة والغربة. فقد أشار عديد من الرحالة المغاربة في العصور الوسطى إلى هذه الناحية ، وأبرزها (المقري) عندما قال: "وقد تذكّرت بلادي النائية بذلك المأوى الشامي... وعند رؤيتي لتلك الأقطار الجليلة الأوصاف ، العظيمة الأخطار ، تفاءلت بالعودة إلى أوطان لي بها أوطار ، إذ التشابه بينها قريب في الأنهار والازدهار" [18]. ويدخل في تماثل المناخ والطّبيعة توافق (المناخ الإسباني) من وحدة في العقيدة واللّغة ، والتقارب في كثير من العادات والتّقاليد ، ناهيك أن بلاد المشرق العربي المتوسّطي وبخاصة بلاد الشام ودمشق منها ، قد استهوت أفئدة الجزائريين بأوصاف الجمال ومظاهر الحضارة التي أغدقها عليها رحالتهم والتي جاءت أقوال (المقري) في العصر الحديث مؤيّدة وداعمة لها [19].

ج- **العامل العلمي والمعرفي:**

لقد كان لأداء الفرائض والشعائر الدينية كالحج إلى البقاع المقدّسة ، دور في تدعيم الوجود الجزائري بالبلاد المشرقية كما رأينا ذلك سابقا. إلا أن التنقل لطلب العلم والاستزادة منه ، كان له الدور الأقوى والأكبر و إن كان هذا العامل أيضا يحرّكه العامل الديني بشكل غير مباشر. وكانت الرحلة من أجل طلب العلم وتحصيله وكذا لتبادل الآراء في شتى أنواع العلوم العقلية والنقلية من الأمور المحمودة لدى الجزائريين من مختلف نواحيها ، من تلمسان ، بجاية ، الجزائر وقسنطينة وغيرها من الحواضر الجزائرية الكبرى خلال هذا العهد ، وبالتالي فإن هذا العامل يعتبر من العوامل شبه الثابتة في حركة الهجرة الجزائرية إلى المشرق خلال العصر الحديث ، وهو عامل تفاعل بشكل كبير مع العامل الديني ، الأمر الّذي جعل من الصعوبة بمكان فصم هذا العامل عن العوامل الدينية السالفة الذكر ، وذلك لتلاحمها و ترابطها. فطلب العلم فريضة –كما جاء في حديث الرّسول الكريم- ولذلك كان المغاربة ومنهم الجزائريون حريصون على تنفيذ تعاليم الدّين. والمشرق بصفته مبعث الرسالة و منطلق القرآن ومهد العربية [20].

وقد ازدهرت بلاد الشام ومصر بالعلوم الدينية واللّغوية منذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر ميلادي ، وغدت كعبة يؤمّها طلاّبها من جميع الأصقاع الإسلامية وذلك بعد أن دعمت السنة في ربوع القطرين وأعطيت حرية الفكر لمعتنقي المذاهب الأربعة ، وانتشرت

المدارس ، وحلقات الدراسة في المساجد ، وبخاصة في الجامع الأزهر بالقاهرة وجامع بني أمية بدمشق [21].

رصدت الأوقاف الكثيرة على المنشآت التعليمية الدينية ، لصالح طلبة العلم والمدرسين على السواء. ومن الطّبيعي أن تصل أخبار تلك النهضة العلمية وترحيب المشارقة بالغاربة من طلبة العلم والعلماء إلى مسامع أهل المغرب عبر الرحالة والحجيج والتجّار بل والعلماء العائدين أنفسهم ، حتى أن (ابن جبير) حثّهم صراحة على الرّحيل إلى بلاد الشام والتغرّب في طلب العلم [22].

وبالفعل تدفّق طلبة العلم والعلماء من المغاربة إلى المشرق العربي في العصر الوسيط. وظلّ جاذب العلم هذا تقليدًا قويًّا في نفوس المغاربة ومنهم الجزائريون خلال العصر الحديث على الرّغم من بعض وهن أصاب العلم في المشرق العربي في ظل الحكم العثماني [23].

وتوضّح كتب التراجم المشرقية والمغربية ، أن الدّراسة والتّدريس في (رواق المغاربة) بالجامع الأزهر والجامع الأموي والتعبّد فيه والالتقاء بخيرة العلماء المشارقة ، كان حلمًا يدغدغ المغاربة من العلماء والمتلهفين على العلم ، ويضاف إلى ذلك أن بلاد المشرق العربي غدت في العصر الحديث طريقًا لهؤلاء المغاربة الوافدين توصلهم إلى بلاد العثمانية في آسيا الصغرى ومن ثم الانتقال إلى بقية مناطق وأرجاء العالم الإسلامي التي اشتهرت هي الأخرى بمدارسها [24].

د- **العامل السياسي**:

لا يقل العامل السياسي أهمية عن العوامل الأخرى التي سبق ذكرها في الدّفع بالجزائريين إلى الهجرة إلى بلاد المشرق ولاسيما في فترة الحكم العثماني ، حيث نجد أن كثير من الجزائريين شدّوا الرحال بسبب السياسة المعتمدة من قبل حكّام الدولة العثمانية في الجزائر خاصة بالمنطقة الغربية أي تلمسان ونواحيها [25].

لم تكن معاملة الأتراك هي السبب المباشر في هذه الهجرة ، ذلك أن الحروب الداخلية التي عرفتها المملكة الزيّانية وضغط الإسبان بوهران وبني وطاس عليها من الغرب والعثمانيين من الشرق ، قد جعل الجزائريين ولاسيما العلماء لا يشعرون بالراحة و لا بالجو الملائم والاجتهاد في الرأي والحياء السياسي. فما كان من العديد منهم إلا أن حمل أمتعته وأهله وترك البلاد ، حتى يهدأ غبار الفتن والمعارك [26].

إلى جانب هذه الأسباب ، هناك أسباب أخرى أدّت بآلاف الجزائريين إلى الهجرة ، خاصة فئة العلماء منهم ، وهي تورّط بعضهم في المشاكل السياسية والمحلّية. كما حدث لعيسى الثعالبي في عهد الداي يوسف باشا وأيضًا ليحيى الشاوي وابن الترجمان الّذي قال عنه الجبرتي أنه

كان: "أحد أذكياء العصر ، ونجباء الدّهر ، وحاز أنواع الفواضل..." ، كلّ هؤلاء شدّوا الرّحال إلى المشرق [27].

هـ- العامل المادّي والتّجاري:

يعدّ العامل المادّي من الأمور التي لم يطرأ عليها تبديل في العصر الحديث عما كانت عليه في الوسيط. فخروج الجزائريين إلى المشرق العربي من أجل اكتساب الرّزق أدى بهم إلى ممارسة التّجارة خاصّة بعد أن عادت لمعظم مناطق العالم العربي الإسلامي وحدته في ظل الدّولة العثمانية. إلاّ أن هناك تساؤلات منها: أن المشرق العربي فقد دوره كوسيط تجاري بين المحيط الهندي و الأطلنطي بعد اكتشاف الطّرق التجارية العالمية الجديدة من قبل إسبانيا والبرتغال وفرنسا. إلا أن الواقع التاريخي ، يُظهر أن المشرق العربي والبحر المتوسّط معه ، لم يفقدا دوريهما كوسيطين بين المحيطين ، لأنهما بقيا الطريق الأقصر والأسلم بعد اشتداد القرصنة في المحيطات [28]. كما اشتدّت الصلات العدائية بين المغرب وأوربا في هذه الفترة. وشهدت الصلات الوثيقة التي ربطت بين معظم أجزائه والدولة العثمانية على الرّغم من ضعفها التّدريجي والرّوابط الاجتماعية بينه وبين المشرق العربي ، ظلّت كلّها عوامل هامة في الإبقاء على خط التّجارة المغربي-المشرقي.وهناك بعض المصادر تقول أن بعض المغاربة ومنهم الجزائريون كانوا يعملون بالتّجارة في بلاد الشام كدمشق أوحلب أوطرابلس أو القدس [29].

ثالثا: مراكز تواجدهم واستقرارهم:

منذ العصور الوسطى ، كان للجزائريين الفقراء والطالبين للعلم مقر في مصر خاصة في مسجد ابن طولون ، يتّجهون نحوه ويسكنونه ، ويعقدون حلقات الدّرس فيه. ويبدو أن هذا المقر بقي لهم حتى العصر الحديث [30]. هذا بالإضافة إلى رواقهم الخاص في الجامع الأزهر والّذي ظلّ فعّالاً و نشيطا خلال العصر الحديث كلّه.

ويبدو أن عدد الجزائريين في مصر لم يكن قليلاً في أوائل القرن العاشر/السادس عشر ولم يكونوا ليقيموا في القاهرة وحدها ، بل كانوا ينتشرون في عديد من مدن مصر و لاسيما تلك التي تضم مدارس للعلم ، كرشيد والمحلة والإسكندرية وبالإضافة إلى كونها كانت مقرًّا علميًّا ، كانت كذلك محطّة للتجارة المغاربية [31].

وفي بلاد الشّام كان للمغاربة الزاوية المالكية في الجامع الأموي ، زاوية أخرى في دمشق أنشئت وفقا لهم و الّتي كانت تسمّى "بزاوية المغاربة" [32]. وقد كانت عامرة بهم في العصر الحديث ، وأمرهم فيها لا يختلف عن أمرهم في جامع ابن طولون بالقاهرة. كما كانت لهم زاوية مماثلة في بيت المقدس ؛ وقد فتح أمامهم باب الدراسة والتدريس في مدارس المالكية بدمشق كالمدرسة الشرابيشية [33] ، والصّالحية [34] ، والصمصامية. بل أنه كان يسمح لبعض علمائهم الأفاضل بالنزول في مدارس أخرى للإقامة.

لقد كان حال الجزائريين في بلاد الشام كحالهم في مصر من حيث الانتشار في مدنها المختلفة ، كبيت المقدس [35] التي يجاورون فيها ، وطرابلس ، وحلب.

قدعرف الوافدون في بلاد المشرق العربي بعامة وفي دمشق بخاصة بالأمانة حيث سلموا كثيرا من الأعمال التي تستوجب تلك الصفة ، ولاسيما التعليم والتأديب . ولقد لخّص "ابن بطوطة" بعض الأعمال التي أسندت إلى المغاربة بصفة عامة بقوله: "وأهل دمشق يحسنون الظن بالمغاربة ، ويطمئنون إليهم بالأموال ، والأهلين والأولاد وكل من انقطع بجهة من جهات دمشق لابد أن يتأتى إليه وجه من المعاش ، من إمامة مسجد ، أو قراءة مدرسة ، أو ملازمة مسجد يجيء إليه فيه رزقه... أوحراسة بستان ، أوأمانة طاحون ، أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح. ومن أراد طلب العلم ، والتّفرغ للعبادة ، وجد الإعانة التّامة على ذلك" [36].

لم يخرج الأمر في العصر الحديث عما ذكره (ابن بطوطة)، فالمشارقة ظلوا معجبين بإخوانهم الوافدين. فهم يرونهم يقطعون الفيافي وينتقلون بين القاهرة ودمشق ومكة والمدينة وطرابلس وحلب والقدس ، لينالوا علمًا أو يلتقوا بعالم غير عابثين بأمور الدنيا ومشقاتها ، فأكبروا فيهم تلك الهمّة وفتحوا صدورهم لهم ، وسلّموهم تأديب أطفالهم والإشراف على خزن الكتب والتّدريس والوعظ في المدارس والمساجد ، وأسندت إلى بعضهم نيابة القضاء ، والآذان في المساجد ومهام دينية أخرى [37].

ومهما يكن ، فلقد كانت نسبة الجزائريين الوافدين على المشرق العربي خلال القرن العاشر/السادس عشر وعلى رأسهم العلماء ، فنجد أن مصر والحجاز قد تساوى في النسبة بحوالي 42% ، في حين كانت النسبة قليلة في دمشق حوالي 14%. أما في القرن الحادي عشر/السابع عشر ، فلقد وصلت النّسبة إلى أكثر من 58% بمصر و25% بالحجاز و16% بباقي المناطق. أما فيما يخص القرن الثاني عشر/الثامن عشر ، فتتوزّع النسبة كالتالي حوالي 71% بمصر و14% بالحجاز و14% بباقي مناطق المشرق العربي [38].

والملاحظ من هذه النسب ، أن مصر قد حظيت بأكبر نسبة في هذه القرون الثلاث بعلماء جزائريين ، وأن مدارس العلم والتّعليم والاستقرار الاجتماعي من العوامل التي جعلت الجالية الجزائرية تتوافد على بلاد مصر.

رابعا: <u>الظروف الاقتصادية والاجتماعية</u>:

أ- **<u>الاقتصادية</u>:**

من الأمور التي لم يطرأ عليها تبديل في العصر الحديث عما كانت عليه في الوسيط ، خروج المغاربة ومنهم الجزائريين إلى المشرق العربي التماسًا للرزق إما التّجارة أو الصّناعة أو الحرف أو قطاع الأموال [39]. فقد كان للمغاربة في مصر ، في مطلع القرن العاشر/السادس عشر جالية تجارية غنيّة ولها أعيانها. وقد بقيت هذه الجالية التجارية قائمة خلال العصر الحديث.

وكما تشير بعض المصادر أن بعض المغاربة كانوا يعملون بالتجارة في بلاد الشام كذلك، أكان في دمشق أو حلب أو طرابلس أو القدس.

وقد تعامل المغاربة في الكبريت وعسل النحل والأرز والزعفران والقمح والجلود والشّمع، كما تاجروا في الأقمشة والمنسوجات والحبال والأخشاب؛ وامتدّ نشاطهم التجاري إلى العبيد والجواري [40]. أما عن طرق التعامل في ميدان التّجارة، فكانت متعدّدة، في أن بعض التجّار كانوا يعملون لحسابهم الخاص، سواء على مستوى صغير أو في حجم تجارة كبيرة. ويشهد قطاع التجارة للمغاربة في مدينة الإسكندرية مثلا كثيرًا من المنازعات في هذا الميدان، وأرشيف المحكمة الشرعية بالإسكندرية يعطينا صورة عن طريقة التقاضي والأحكام التي تصدر أو الطرق التي كانت تتّبع لتسوية الخلافات بطريقة وديّة [41].

ثم يأتي مجال آخر في الاقتصاد وهو بيع العقارات. ففي مثل هذه الحالة، يذكر الوصف الكامل للعقار، ويشترون بطريق الوكالة لحساب بيت المال [42]. كما علينا أن نذكر أن سجلات المحكمة الشرعية بالإسكندرية تشمل على نوع جديد من النّشاط المالي، وهو ميدان القروض. حيث شارك المغاربة في هذا المجال، فكانوا يقترضون من بعضهم، كما كانوا يقترضون ويقرضون بعض أبناء مدينة الإسكندرية أو أبناء الجاليات الأوربية [43]. و قام بعضهم بالاقتراض بالوكالة لبعض الأمراء السابقين في المستحفظان [44].

ورغم الاضمحلال الّذي كانت تعاني منه الصّناعة في المشرق العربي، إلا أنه هناك بعض الصناعات التقليديّة مثل صناعة المنسوجات، التي اشتهرت بها المنطقة قبل الوجود العثماني كصناعة الشاش المموج بالذهب والسلاقطون (وهو نوع من النّسيج المصنوع من الحرير المطرّز بالذّهب). في حين زاد من شهرة صناعة النّسيج خاصة، نسيج الملابس المغربية وصناعة الملابس الصوفية في العصر العثماني [45]. كما عمل المغاربة في صناعة الزّيوت والصّابون والأقمشة، والعطور، والسكّر وصناعة القفاص، والحصر، والأدوات الحديدية، ودباغة الجلود، والأدوات الخشبية، والتّجارة وصناعة السّروج.

أما الحرف التي احترفها المغاربة في بلاد المشرق، فنجد الخبّازين والسماسرة والقصّابين والحلاّقين، وصرافين، والخيّاطين والحمامين، والمدّاحين. هكذا أسهم المغاربة في الحياة الاقتصادية في كافة أنشطتها من حيث انشغالهم بالتّجارة والصّناعة والحرف وبعض مجالات أخرى [46].

إلا أن من بين الأعمال الكبرى التي برز فيها الوجود المغربي، ومنه الوجود الجزائري واضحًا وفعّالاً (العمل العسكري)، أوالارتزاق عن طريق الجندية. فالمصادر المعاصرة للقرن الثاني عشر/الثامن عشر، تشير إليهم فرقا خاصة عاملة تحت إمرة الولاة والأمراء المحليين في بلاد الشام ومصر؛ وفي الحقيقة، أن العمل العسكري للمغاربة في المشرق العربي ليس

جديدًا أوابن العصر الحديث ، فقد كانوا فرقة في الجيش العباسي ثم استخدمتهم الخلافة الفاطمية ، كما استفاد منهم الأيوبيون والمماليك بعدهم [47].

وتشير المصادر العربية في مطلع العصر الحديث عن رفض المغاربة الانضمام إلى جيش السلطان (طومان باي) في مواجهة الدولة العثمانية. ويعود ذلك إلى عدّة عوامل و أسباب منها: رفضهم قتال المسلمين. ويرجع هذا الرفض إلى الشعور بالانتماء الديني الإسلامي وكذا مؤاخذة المماليك على تخاذلهم في نصرة ونجدة إخوانهم المسلمين في غرناطة ، على الرغم من أصوات الإغاثة الموجّهة إليهم. والسبب الأخير يتمثل في خوف المغاربة من بطش السلطان سليم إذا ما تمكّن من المماليك [48].

ج - **الاجتماعية:**

أما حياتهم الاجتماعية في بلاد المشرق في العهد العثماني ، فقد تمثّلت في المعاملات اليومية مع بعضهم البعض ، وبينهم وبعض الجنسيات الأخرى. وظهر ذلك واضحا في الزواج والطّلاق والميراث ، والخلافات العامة ، وإعتاق العبيد والجواري ، والأوقاف ، وغير ذلك من المظاهر الاجتماعية الأخرى. فبالنسبة للزواج ، فهي ترتبط بتقاليد معيّنة ، حيث يتقدّم الزوج بطلب الزوجة من يد والدها أو موكّلها ، وعند الموافقة يدعى الزوج للاجتماع به في المسجد ، ويحضر المأذون والشهود لكي يعقدوا القران [49]. وفي أفراحهم ، ترقص الجارية وسط جموع الرجال ثم توضع الزوج على ظهر الجمل مزيّنة ومن ورائها البهائم وأدوات البيت. بينما تنطلق أنغام الموسيقى والطلقات النارية من بنادقهم وزغاريد النساء ، وعند الطّلاق يتّفق في بعض الأحيان على أن تبرئة الزوجة من مؤخّر صداقها وكافة التزاماتها [50] ، وأحيانًا يتمّ الطلاق عن طريق التوكيل لتتم إجراءات الطّلاق مع تسليمها كافة مستحقاتها كاملة.

يأتي بعد ذلك مظهر آخر من مظاهر الحياة الاجتماعية الخاصة بهم ، التي اتّخذت أنماطًا عديدة ، مثل التعامل مع بعضهم البعض ومع الآخرين ، وتمثّل ذلك في الاعتداء إما باللّفظ أو بالضّرب وغير ذلك من الوسائل الأخرى. والأمثل عن ذلك كثيرة ، مثل اعتداء أحدهم على الآخر بالألفاظ النابية وتفوه بألفاظ أخرجته من دين الإسلام. وعندما سئل عن ذلك ، اعترف واستغفر ربه ، وتاب ، و تلفّظ بالشهادتين. كما اعتدى بعضهم على الآخر وأدّى ذلك إلى اشتباكهم وتمزيق الملابس ، و استشهد كلاهما بالشهود الّذين أكّدوا اعتداء كل منهما على الآخر ، وعلى ذلك لم يصدر القاضي أي حكم ضدّهما [51].

كما شهدت الحياة الاجتماعية ، قيام بعضهم بإعتاق بعض عبيده وجواريه ابتغاء وجه الله ، وآخر أحضر عبده المسيحي وأعلن إسلامه ووافق على ختانه .

نستخلص من هذا الموضوع عدة استنتاجات نوجزها في التالي:

- تطور هجرة الجزائريين في اتجاه المشرق لم يكن منحصرا في فترة زمنية معينة بل كان مند الفتح الإسلامي لشمال إفريقيا .

- تعدد الظروف والأوضاع التي عاشتها الجزائر وراء استفحال ظاهرة الهجرة.
- الدوافع والعوامل المختلفة من بين النقاط التي جعلت الجزائريين يشدون الرحال نحو هذه المناطق.
- طلب العلم وزيارة الأماكن المقدسة من الأهداف الأساسية لظاهرة الهجرة .
- السيرة والسلوك الحسن التي تمتع به الجزائريين في المشرق جعلهم يجدون الترحاب والمودة من قبل أهل المشرق.

الإحالات:

1- نادية طرشون: الهجرة الجزائرية نحو المشرق العربي أثناء الاحتلال ، طبعة خاصة ، وزارة المجاهدين ، الجزائر ، ص9.

2- نادية طرشون: الهجرة الجزائرية نحو المشرق العربي أثناء الاحتلال ، ص9.

3 - نفس المرجع ، ص 10.

4 - تقع في منابع واد سباو بالسفوح الشرقية لجبال جرجرة

5 - تقع هذه الإمارة في المنطقة الواسعة بين واد الساحل و الحضنة في الشرق الجزائري. و بعد دخول الجزائر تحت نفوذ الدولة العثمانية ، ربط أصحاب هذه الإمارة علاقات طيّبة مع السلطة العثمانية في الجزائر

6 - عبد الله الشريط: الجزائر في مرآة التاريخ ، طبع و نشر مكتبة البعث ، قسنطينة ، ص117 ، ماي 1965.

7- عبد الله الشريط: الجزائر في مرآة التاريخ ، ص117.

8- أحد الإخوة الذين كان لهم الفضل في مساعدة المسلمين الأندلسيين الفارين من البطش الصليبي الإسباني ، وواضع ركائز الدولة الجزائرية .

9- خير الدين بربروس: تعني ذا اللّحية الحمراء ، تطلق فقط على خير الدين و ليس على أخيه عروج و قد وردت هكذا في الغزوات التي أشرف عليها و وردت هكذا في الوثائق الديبلوماسية الفرنسية ، حيث نقل عن السلطان العثماني نفسه أنه كان يسمي خير الدين بأميرالنا ذو اللحية الحمراء.

10- عبد الله الشريط: نفس المرجع ، ص118

11 - مُحَمَّد خير فارس: تاريخ الجزائر الحديث ، ص25

12-المرجع نفسه ، ص26.

13 - المرجع نفسه ، ص30.

14 - عبد الله الشريط: الجزائر في مرآة التاريخ ، ص120.

15 - مُحَمَّد خير فارس: المرجع نفسه ، ص 40

16- ليلى الصباغ: الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث ، نقلا عن نفح الطيب المقري ، ص34.

17 - ليلى الصباغ: الوجود المغربي في المشرق المتوسطي ، نقلا عن أبي السرور البكري: الروضة المأنوسة في أخبار مصر المحروسة ، ص80.

18- ليلى الصباغ: المرجع نفسه ، ص80 ، نقلا عن البوريني: تراجم الأعيان من أنباء الزمان ، جزءان ، تحقيق صلاح الدين المنجد — دمشق 1959.

19 - ليلى الصباغ: المرجع نفسه ، ص81 ، نقلا عن نفح الطيّب للمقري ، ص34.

20- ليلى الصباغ: المرجع نفسه ، ص82 ، نقلا عن نفح الطيب للمقري ، ص68.

21 - المرجع نفسه ، ص82 ، نقلا عن نفح الطيب للمقري ، ص65-66.

22 - المرجع نفسه ، ص82 ، نقلا عن رحلة ابن جبير ، القاهرة 1955 ، ص260.

23 - لقد وصف ابن جبير النشاط العلمي فيه وصفًا شوّق إليه أفئدة طلبة العلم من مواطنيه المغاربة عندما قال: "و من مفاخر هذا الجامع أنه لا تخلو القراءات منه صباحًا و لا مساءً ، و فيه حلقات التدريس للطلبة وللمدرسين فيها أجراء واسع." رحلة ابن جبير ، القاهرة 1955 ، ص262.

24- ليلى الصباغ: الوجود المغاربي في المشرق المتوسطي ، ص83 ، نقلا عن ابن جبير: رحلة ابن جبير ، ص274.
25- المرجع نفسه ، ص83 ، نقلا عن: GIBB et Bowen : Islamic Society and the West, vol 1, Paris 1957
26- المرجع نفسه ، ص83 ، نقلا عن: J.Jomier « Al Azhar » in Encyclopedie de l'islam, T1, 2 Edition p 837-844.
27 - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (16–20) ج1 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1981م ، ص430.
28- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ، ص 431.
29- نفسه ، ص438.
30- ليلى الصباغ: الوجود المغاربي في المشرق ، ص362 ،
31- المرجع نفسه ، ص92 ، نقلا عن الغزي: الكواكب ، ج1 ، ص27.
32- ليلى الصباغ: الوجود المغاربي بالمشرق ، ص84 ، نقلاً عن مُحَمَّد بن مُحَمَّد أبي السرور البكري: "المنح الرحمانية في الدولة العثمانية" (مخطوط مصوّر).
33- ليلى الصبّاغ: المرجع نفسه ، ص84 ، نقلاً عن الغزي: الكواكب السائرة ، ج3 ، ص81.
34- وهي المسماة كذلك بِ"الزاوية الوطية" تقع شمال جامع جراح خارج الشاغور و كانت لجميع المغاربة على اختلاف أجناسهم ، بشرط ألا يكون النازل بها مبتدعًا و لا شريرًا. تعود إلى صاحبها علاء المشهور بابن وطية.
35- عرفت بهذا الاسم نسبة إلى واقفها نور الدولة على الشرابيشي التاجر السفار المتوفي عام (734هـ/1333م) النعيمي ، ج2 ، ص7- 8 ، و قد كان لها نَشاط كبير في العصر الحديث ، المحبي ، ج1 ، ص97.
36 - أنشأها صلاح الدّين الأيّوبي و إليه نسبت ، و كان يطلق عليها (النورية) و كان معظم المدرسين فيها من علماء المغاربة الوافدين.. النعيمي ، ج2 ، ص16.
37- المرجع نفسه ، ص85 ، نقلا عن الغزي: الكواكب ، ج1 ، ص282 ، ترجمة (مُحَمَّد البليلي).
38- المرجع نفسه ، ص85 ، نقلا عن الغزي: الكواكب ، ج1 ، ص277 ، ترجمة (علي بن ميمون).
39- المرجع نفسه ، ص86 ، نقلا عن الغزي: لطف أسمر ، ص39 و المحبي ، ج1 ، ص373.
40- هلال عمار: العلماء الجزائريون في البلاد العربية الإسلامية ، ص293-313 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1995.
41- ليلى الصباغ: الوجود المغاربي في المشرق ، نقلا عن الغزي: لطف أسمر ، ص110.
42- صلاح حمد هريدي علي: الحياة الاقتصادية و الاجتماعية و الفكرية للمغاربة في مدينة الإسكندرية في العهد العثماني ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد 57-58 ، جويلية 1990.
43- صلاح حمد هريدي علي: المرجع نفسه ، ص505
44- بيت المال ، التزام ما يعود للخزينة من رسوم و حقوق و مبرات من لا ورث له ، من عامة الناس أو من رجال الدولة و جندها و موظّفيها (ليلى عبد اللّطيف ، دراسات في تاريخ و مؤرخي مصر و الشام إبان العصر العثماني ، ص83
45- المرجع نفسه ، ص508.
46 - مستحفظان: جمع مستحفظ و هي كلمة فارسية و المستحفظ من يقوم بالمحافظة على حدود الدولة Stanford Shaw — Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, p160.
47- المرجع نفسه ، ص509 ، نقلا عن عمر عبد العزيز عمر: مجتمع الإسكندرية في العصر العثماني ، ص330-331.
48- المرجع نفسه ، ص510 ، نقلاً عن عبد الرحمن عبد الرحيم: المغاربة في مصر في العصر العثماني ، ص83.
49- ليلى الصباغ: الوجود المغربي في المشرق في العصر الحديث ، نقلا عن: V.J. Parry : « warfare » in the Cambridge History of Islam, vol 2, cambridge 1970, p856
50- المرجع نفسه ، ص95 ، نقلاً عن مُحَمَّد بن مُحَمَّد أبي السرور البكري: نصرة أهل الإيمان في دولة آل عثمان ، مخطوط مصوّر في معهد المخطوطات العربية ، القاهرة.
51- صلاح حمد هريدي علي: المرجع نفسه ، نقلاً عن الحسن عبد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي: "وصف إفريقيا" ، ترجمة مُحَمَّد حجي ،الجزء1 ،الطبعة1 ، بيروت 1983م ، ص254-255
52- المرجع نفسه ، ص512 ، نقلا عن سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر المماليك ، ص122.
53- المرجع نفسه ، ص 514.